كتاب المونس

في

اخبار افريقية وتونس

تاليف

الفقيه النبيه العلامة ابي عبد الله الشيخ

محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني

المعروف

بابن ابي دينار

رحمهما الله تعالى

طبعة اولى

في مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية

سنة ١٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يبدا احد في كتاب الّا باسمه ليصل الى التمام * ولا يدون ديوانا الّا ويشحنه بالثناء عليه بما له على العباد من الفضل والانعام * ولا يورخ تاريخا الّا ليعلم من عجائب مخلوقاته وغرائب مصنوعاته ما تعجز عنه العقول وتقصر عنه الافهام * الملك الذي بيده مقادير الامور مدى الدهور والاعوام * الذي اخترع العالم بحكمته وابرزه للوجود بقدرته تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام * احمده حمد من اقر بربوبيته واعترف بوحدانيته من غير شك ولا ايهام * واشكره شكر من وهبه جزيلا من فضله فطلب منه المزيد بالشكر لقوله اشكروني ازدكم من الخير والانعام * واشهد ان لا اله الّا الله وحده لا شريك له المنفرد بالتصرف في ملكه وملكوته بالعدل والاكرام * واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي جاء بالصدق وقطع دعوة الملحد ببلاغته من كلام العزيز العلام * وهاجر من اعز البقاع الى اعز البقاع فاقام الدين واظهر شرائع الاسلام * ويوم هجرته صار تاريخا لمن تمسك بشريعته بين الانام * صلى الله عليه وسلم صلاة عاطرة يتضوع من نشرها مسك الختام * وعلى آله الطاهرين الطيبين الذين اثنى عليهم الملك العلام * انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا من جميع الاثام * وعلى اصحابه الذين فتحوا مشارق الارض ومغاربها

وهدموا صوامع الشرك وقتلوا عباد الاصنام * واعلنوا بكلمة التوحيد فانار الهدى وانقطع الباطل وارتفع الخصام * صلاة وسلاما ادخرهما ليوم العرض والزحام * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه تكون لي نجاة من النار ومثوبة بالفوز في دار السلام * ورضي الله عن التابعين وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم الدين السادة الفضلاء الاعلام * ما ترنم طير على ايكه ورقت على منابر الاصابع خطباء الاقلام * وبعد فيقول العبد الفقير الى رحمة الملك الغفار * محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني المشهور بابن ابي دينار * عامله الله بلطفه * واسبل عليه ستائر حلمه وعطفه * بمنه وكرمه * امين * قال بعض اهل العلم ان في علم التاريخ عبرة لمن يعتبر * وتذكرة لمن يتذكر * لانه ينبي عن صنع الله في القرون الخالية * وكيف تصرفت قدرته بارادته في الامم الماضية * وحكمته تعالى جارية في مخلوقاته بعدله واحسانه بحسب ارادته على مر الدهور والازمان * وهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شان لا يشغله شان عن شان * وقال تعالى قل سيروا في الارض على احد اقوال المفسرين هو النظر في كتب السير * والتطلع على اخبار الماضيين من البشر * فمن امعن النظر في اخبار الماضيين راى ما يعجب منه العجب * وان تامل سير الملوك سرح طرفه بمرءاة الزمان في مروج الذهب * وان شنف سمعه باخبار الزمان * اغنته ازهار حدائقها عن قلائد المرجان * وعلم ان الدر المشرق * في اخبار اهل المشرق * وان استغرب فالمعرب * عن احوال اهل المغرب * فان اختصر فالمختصر في اخبار البشر * والحديث شجون * والعشق جنون * والجنون فنون * وكل حزب بما لديهم فرحون * ولهذا كثرت كتب السير في غالب المعمور من الارض الا ان كل امة يستمد بعضها من بعض * والبلاد متفاوتة على قدر مراتبها * والعقول مختلفة فيما تجمعه من عجائبها وغرائبها * الا ان مدينتنا الخضراء العلية * وعروس البلاد الافريقية * تونس حرسها الله تعالى لم يتقيد لجمع اخبارها مصنف * واذا تامل المتامل الى معناها وترتيبها وجدها احق بالتصنيف من غيرها اذا كان المتامل منصفا لا

متعسف * لانها عروس بلاد المغرب ونزهة الاقليم الافريقي ودار الخلفاء من بني ابي حفص * وهي اشهر من نار على علم وخبرها رونق الثقاة بالنقل والنص * وتمت محاسنها وان كانت غير ناقصة بالدولة العثمانية * وعظم صيتها بين حبائبها لما نشرت عليها الاعلام الخاقانية * إلّا انه تقدم لابن الهنتاتي مجموع لطيف اخبر فيه عن احوال القوم * وانفق من بضائع بني ابي حفص ما تيسر له ولكنه غالى في السوم * وما ذاك إلّا لانه لم ينظر الى حلية تونس في هذا الزمان * ولم ينظر الى معناها ومغناها الذي له شان واي شان * ولو ادرك زماننا لطغى بقلمه والقى العصا * ولو شاهد حسنها في حلل الهناء لقال هذا مما لا يعد ولا يحصى * ولما تمت محاسنها اصابها سهم من نظر المعيان * فلم تخطا رميته حتى راينا مصارع العشاق في حرب الاخوين ومقاتل الفرسان * وكانت قبل اليوم في ذروة الشرف * واهلها في نعيم مقيم في الرعة والترف * الى ان قدر الله علينا بخطوب واي خطوب * وقابلها الزمان بعد التبسم بوجه قطوب * فتكدرت احوال اهل البلد * واصبح كل انسان يقول نفسي نفسي ولا يسال احد عن احد * وقد كنت اتمنى ان اجد سن فيه نباهة ليجمع ما حدث في زماننا من الوقائع العجيبة * ويضيفه الى ما جمعه ابن الشماع في تلك المدة البعيدة الى هذه المدة القريبة * وكم تشوقت الى هذا الجمع بنفسي * وملت اليه بحسي وحدسي * الى ان قدر الله علي بفرقة الاحباب وموت الاولاد * ودهيت بما تقطع منه كبدي وكبد غيري من اهل البلاد * فكان هذا هو الباعث لي في هذا التقييد * واستشرت مامونا في مشورته فرسم لي برايه الرشيد * فجمعت ما كان متفرقا بالرواية والسند * وجعلته مقام تبريد اشتعال الكبد بموت الولد * وجعلت انسلى به عن حزني * لاني في غمرات امتلا القلب منها وقال قطني * ورحم الله ابن الوردي حيث قال — لي مهجة في النازعات وعبرة : في المرسلات وفكرة في هل اتى — وإلّا فكيف لي ان اكون من فرسان هذا الميدان * ولست من ابناء الخضراء على الحقيقة حتى يحصل لي هذا الشان * ورحم الله الاحنف حيث

قال — فسد الزمان فسدت غير مسود : ومن الشقاء تفردي بالسودد — ولكن لي العذر وقد تطفلت على موائد الكرام واساءتي مغفورة عند العلماء من اهل الحضرة وان كنت معدودا من العوام * والّا فكيف لي ان اضرب بقداحي بين القوم وافوز بسهم * ام كيف يكون لمثلي بين العقلاء نصيب او قسم * وانا خائض في غياهب الجهالة * وسارح في مروج اللهو والبطالة * فصرت كحاطب ليل او جامع سيل * وطلع صباح الشيب فبدت غاية النهار مبصرة فمحت غاية الليل * وفقد الشباب والاحباب * اعظم المصاب * قال بعضهم —

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم يبلغ المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الاحباب

وها انا استهدفت للرامي * وابرزت مرامي * وقدمت ما اورده ابن الشماع ليكون البناء على اساس * واجمع الى كلامه ما انقله عن غيره وما رويته عن غير واحد من الناس * واذا ذكرت شيئا مما ثبت عنده * اذيل عليه بنكت من كلام الغير وكل احد ينفق ما عنده * وابذل جهدي بقدر الطاقة عسى ان يحصل لي نصيب * واجتهد فيما اردته ان شاء الله وما كل مجتهد مصيب * فان ظفرت بشيء مما رمته وبلغت المنا * كنت ابن ظفر على الحقيقة ونظمت في سلك نجباء الابنا * ومن الله استمد الاعانة والطول * لانني عاجز ولا قوة لي ولا حول * واساله التوفيق في القول والعمل * والنجاة من الخطا والزلل * ان شاء الله تعالى * وسميته « المونس في اخبار افريقية وتونس » * ورتبته على سبعة ابواب بعدد ابوابها وخاتمة *

الباب الاول في التعريف بتونس : الباب الثاني في التعريف بافريقية : الباب الثالث كيف فتحتها الجيوش الاسلامية : الباب الرابع كيف استولت عليها الخلفاء العبيدية : الباب الخامس في الامراء الصنهاجية : الباب السادس في الدولة الحفصية : الباب السابع في الدولة العثمانية : والخاتمة تتضمن احداثا ظهرت في الديار التونسية . ومآثر تفخر بها بين جيرانها الافريقية . وما تميزت به في البلاد المغربية *

الباب الاول

في التعريف بتونس

قال ابن الشماع مدينة تونس هي اسلامية احدثت بعد الثمانين من الهجرة * وكان ابو جعفر المنصور العباسي اذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له ما فعلت احدى القيروانين يعني تونس تعظيما لها * وهي اليوم قاعدة البلاد الافريقية وام بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجر اهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرهما * فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها واحدثوا بها المباني والكروم وبينها وبين قرطاجنة عشرة اميال * وبين تونس ومرساها بحيرة يقال انها كانت كثيرة الجنات والمياه والزرع طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر * قلت عرف بها صاحب الجغرافية حيث قال ومدينة تونس في الجزء الثاني من الاقليم الثالث * ومدينة تونس في ذاتها قديمة اسمها في التواريخ ترشيش ولما افتتحها المسلمون واحدثوا البناء بها سموها تونس * ومدينة تونس في جون خارج عن البحر وهي على بحيرة محتفرة وعرضها اكثر من طولها وذلك ان طولها ستة اميال وعرضها ثمانية اميال ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي * وذلك ان هذه البحيرة لم تكن قبل وانما حفر في البر حفير انتهي به الى مدينة تونس ومن فم هذه البحيرة الى مدينة قرطاجنة ثلثة اميال ونصف * قلت الذي ذكره صاحب الجغرافية انها قديمة لا شك فيه لقول غيره وذكر سبب فتحها وكذلك حفر البحيرة يدل انه كان في زمن الاسلام لان قبل الاسلام كانت قرطاجنة حائلة بينها وبين البحر والبحر بعيد عنها جدا وانما احدث البحر بعد خراب قرطاجنة * وما ذكره ابن الشماع انها كانت بساتين ومزارع تشهد له الابار التي في وسطها وربما وقع فيها صيادو السمك احيانا ويتجنبون مواضعها ولهم بها خبرة * قال ابن الشماع ولمدينة تونس سور يدور بها وان دورها

اربعة وعشرون الف ذراع * قـــلت ولم يذكر الباني لسورها حيث كانت عنده اسلامية والجاري على السنة اهلها ان بناءه كان على يد الشيخ سيدي محرز والشيخ المذكور كان في اول المائة الرابعة الّا ان يكون الشيخ جدده بعد المحنة التي وقعت عليها من ابي يزيد الخارجي وذلك في سنة ست عشرة وثلثمائة لانه نهب افريقية ومدينة تونس ونهب منها نحو اثني عشر الف خابية زيتا غير الاموال والعبيد والامتعة والدواب والنساء والاطفال وغير ذلك وسياتي خبر ابي يزيد بعد ان شاء الله تعالى وكذلك القصبة لم يذكر بناءها * وقـــال عند ذكر المولى عبد الواحد انه سكن بقصبتها عند حلوله بتونس وهذا يدل على ان قصبتها متقدمة من زمن بني ابي حفص * قـلت ولعلها من بناء بني الاغلب كما سياتي والعمال كانوا يسكنون بها وابناء خراسان كانوا بها لما خرجوا عن طاعة بني باديس * والغالب على ظني انها القصبة القديمة واما هذه فهي بناء بني ابي حفص كما سياتي ان شاء الله تعالى * قـال ابن الشماع وجامع تونس مليح الصنعة حسن الموضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحبحاب ودار الصناعة سنة اربع عشرة ومائة وانفذ اليها البحر * قـــلت عبيد الله بن الحبحاب كان عاملا لهشام بن عبد الملك بن مروان على مصر وارسله الى افريقية ســـنة عشر ومائة فلما وصل القيروان اخرج المستنير من السجن وارسله الى تونس واليا عليهـا ولعله لم يدخل الى تونس وتقدمه البكري حيث قـــال ومدينة تونس دورها اربعة وعشرون الف ذراع وذكر بناء عبيد الله بن الحبحاب * قـــال ومدينة تونس اسمها في الاوائل ترشيش ويقال لبحرها بحر رادس ومرساها مرسى رادس وان حسان بن النعمان افتتحها وذكر غيره ان زهير بن قيس البلوي افتتحها * قـــلت وقع التناقض بين قوله من بناء بني امية وبين قوله افتتحها حسان وقول غيره افتتحها زهير وزهير كان سنة سبع وستين وحسان سنة سبع وسبعين والبناء سنة ثمانين الّا ان يكون الفتح اولا ثم استقر بها قدم المسلمين واستوطنوها

واتخذوا بها المنازل والديار وكان نزولهم بها في سنة ثمانين فلذلك نسبت الى بني امية ولم يكن قبل ذلك ينزلها احد من المسلمين وابن الشماع ادرى ببلده * وقال البكري وبمدينة تونس بحيرة دورها اربعة وعشرون ميلا وهي في جبل يعرف بجبل ام عمرو وفي بحيرتها جزيرة مقدار ميلين تسمى شكلي تنبت الكلخ وبها آثار قصر خرب * قلت في زماننا هذا بها قصر مشيد والذي حكاه البكري وغيره عمر بعد ذلك في حدود الاربعين والتسعمائة على ايدي النصارى وبنوا فيه حصارا منيعا الى ان اخذه من ايديهم العسكر العثماني وسياتي ان شاء الله تعالى وخرب وما تبقى منه الّا آثاره وجدد في زمان الحاج مصطفى داي بعد السبعين والالف وهو الى يومنا هذا غير عامر * قال ابن الشماع وتونس دار فقه وعلم وعلى عشرة اميال منها غربا وادي مجردة ويقال ان سَن شرب منه قسا قلبه . وسميت تونس لان المسلمين لما فتحوا افريقية كانوا ينزلون بازاء صومعة ترشيش ويتانسون براهب هناك فيقولون هذه الصومعة تونس فلزمها هذا الاسم * قلت ذكر غيره ان العرب كانوا يسمعون اصوات الرهبان طول الليل في صوامعهم فيتانسون بهم فقالوا هذه البقعة تونس * وقال ابن الشباط وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا هذه تونس وسمي المسجد بجامع الزيتونة * وذكر غيره انهم لما نزلوا بازاء صومعة تونس الراهب الذي نسبت اليه الصومعة فقالو صومعة تونس اطعمهم دشيش الحنطة فصار عادة لاهل البلد في راس كل سنة حتى كاد ان يكون عندهم من الواجب وانهم راوا مكانا محوقا منه بالشوك فسالوا الراهب عن سببه فاخبرهم انه يرى في بعض الليالي نورا ساطعا من تلك البقعة قال — فعلمت ان سيكون لها شان فصنتها من القذرات وبول الكلاب — فصلوا في تلك البقعة وهي موضع المحراب واتخذوا هناك مصلاهم * قلت ان صح هذا فالشرف سابق لهذه البقعة بحيث صلى بها الصدر الاول من المسلمين والفضلاء من المتاخرين وام بالناس فيها عدة اعلام ونجباء كرام وهي بقعة

مباركة يستجاب فيها الدعآء الى يومنا هذا ولله الحمد * وقـــال البكري يدور بتونس خندق حصين ولها خمسة ابواب * وقـــال ابن الشباط لهـا في زماننا عشرة ابواب بعضها في البلد وبعضها في القصبة * قلـــت وفي زماننا لها سبعة ابواب ولم يبق في القصبة إلّا باب غدر وهو مغلق في هذا الوقت * وذكر غير واحد ان لها خمسة اسمآء . ترشيش . وتونس وقيل تانس . والحضراء . والخضراء . والدرجة العليا * فترشيش اسمها في القديم . وتونس حادث لها واشتقاقه من التانيس . والحضراء لانها حضرة السلاطين من بني حفص . والخضرآء لكثرة زيتونها . والزيتون لا يزال اخضر طول الزمان وهو الشجرة المباركة . او لان خيراتها كثيرة عن غيرها وسعة ارزاقها وقد يقال لمن هم في سعة من الرزق خضر المرابع فلذلك عبر عنها بالخضراء . والدرجة العليا قيل لان بها الجامع الاعظم وقيل لارتفاعها عن غيرها من البلدان وارتفاع صيتها في كل اوان * ولقد اخبرني من اثق به ان السلطان احمد صاحب مراكش لما ارسل جيشه صحبة محمود باشا مملوكه الى بلد السودان وفتحها الى تنبكت واخذ على اهلها البيعة لاستاذه وكان بها اذ ذاك الاستاذ العالم العلامة الشيخ ابو العباس احمد عرف بابا رحمه الله سال الناس لمن بايعوا فاخبروه بسلطان مراكش فقال لست اعلم في اقليم الغرب سلطانا إلّا صاحب مدينة تونس حرسها الله تعالى * انظر ايها المتامل كيف ثبت عند هذا العلامة خبر تونس وسلطانها مع قرب بلاده من مراكش وبعدها عن تونس والشيخ احمد صاحب اطلاع وهو من اكابر علمآء وقته وما ذاك إلّا لفخامة ذكرها وعلو قدرها زادها الله علوا * ولنرجع الى قول ابن الشباط قال وجامع تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواره ويرقى الى الجامع من جهة المشرق على اثنتي عشرة درجة * قلت ابن الشباط محقق فيما ينقله ولم يذكر من الباني لهذا الجامع إلّا ما ذكره غيره وهو ان عبيد الله بن الحبحاب هو الباني له كما مر آنفا ولعل عبيد الله هو الذي اسسه * وذكر ابن ناجي ان زيادة الله بن الاغلب بنا جامع

الزيتونة وسور تونس وقصبتها فهي من بناء بني الاغلب * قلت ولعل البناء الضخم هو من بناء الاغالبة ويشهد لذلك ما هو مكتوب في القبة التي فوق المحراب اسم امير المومنين المستعين بالله العباسي سنة خمسين ومائتين وزيد فيه على بنائه الاول كما زيد فيه في ايام بني حفص والله اعلم * وقال ابن الشباط وبتونس اسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق كبيرة رفيعة وبها خمسة عشر حماما * قلت في وقتنا هذا بها اربعون حماما * قال وعضادات ابواب دورها كلها رخام بديع وهي دار علم وفقه ولي منها قضاء افريقية جماعة كثيرة * ويصنع بتونس عانية للماء من الخزف شديد البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في سائر الاقطار * ومدينة تونس من اشرف مدائن افريقية واطيبها ثمرة وانفسها فاكهة وبها من اجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها * قلت رحم الله ابن الشباط وغيره لو شاهدوا ما في هذا الوقت من خيراتها وكثرة بساتينها وجناتها لاعجزهم الوصف وراوا من الفواكه ما ليس له حد ولا طرف وشهادة الله انه يوجد فيها ما لا يوجد في غيرها كثرة وحسنا بحيث لا يدخل تحت حصر واذا افتخر المصريون بمصرهم قلنا لهم هذه اخت مصر وناهيك ان في فصل الخريف يدخل اليها كل يوم ازيد من الف حمل من العنب هذا خلاف ما يباع مع العنب من تين وبطيخ وغيرهما من الفواكه الرطبة واليابسة * ولقد اخبرني بعض خدمة المحتسب في سنة احدى وستين والف انه حصر ما بيع للحمارات من العنب فكان مقداره ستين الف حمل خلاف ما بيع في اسواقها وقس على هذا القدر وفيه كفاية واما الخزف فهو اقل شيء في الفخر وهم اهل الحضرة اعلى من ذلك * وقال صاحب اقتباس الانوار وتونس من بلاد افريقية بينها وبين القيروان اربع مراحل وهي مما بناه بنو امية والمدينة القديمة الرومية اسمها قرطاجنة وينسب الى تونس جماعة من العلماء منهم ابو الحسن علي بن زياد التونسي سمع من مالك الموطا وتفقه عليه وتفقه به سحنون وعاش بعد مالك نحوا من خمس سنين

وقبره بداره داخل باب المنارة * وقـــال ابن الشماع ومنهم الشيخ الامام العابد سيدي محرز بن خلف وقبره بداره داخل باب السويقة . وبقبلي مدينة تونس جبل يعرف بجبل التوبة لا ينبت شيئا وهو المسمى بجبل الجلاز وفي اعلاه قصر مبني مشرف على البحر * قلـــت القصر الذي ذكر هو مقام الشيخ العارف بالله سيدي ابي الحسن الشاذلي نفعنا الله ببركاته والعجب كيف غفل عن التعريف بالمقام مع ان الشاذلي متقدم على ابن الشماع بزمان او لعل المقام لم يشتهر إلّا من بعده * قـــال وشرقي القصر غار منحني الباب يسمى بالمعشوق وبالقرب منه عين جارية * قلـــت لم يبق له اثر إلّا ان يكون المغارة التي تنسب للشاذلي ايضا في زماننا هذا والغار الذي ادركناه قبل اليوم تحت الجبل وبه عين ماء يقال لها الحمام وخرب واليوم في موضعه ماجل وهو على الطريق على شاطي البحيرة * قـــال وجامع تونس يرقى اليه من ناحية المشرق على اثنتي عشرة درجة وقد تقدم هذا النقل عن غيره بزيادة ايضاح * وقـــال ابن الشباط ومحاسن تونس ومبانيها في عصره مما يقصر عنه الوصف وانشد لبعض الشعراء يمدحها

فتونس تونس سَن جآءهـــا * وتدركه حسرة حيث ســار
فلو حل عنها لارض العـــراق * لحن اليها حنين الحـــوار
يحن اليها ويشتاقهـــا اشـــــتياق الفرزدق فقد النـوار

والنوار امراة الفرزدق الشاعر المشهور وله فيها عدة قصائد في محبته اياها * وذكر البلاذري ان زهير بن قيس افتتحها * وقـــال البكري افتتحها حسان بن النعمان وقاتل النصارى بمحصها فاذعنوا له وسالوه ان لا يدخل عليهم ويضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله. واصحابه فاجابهم الى ذلك وكانت لهم سفن فاحتملوا فيها اموالهم واهليهم ليلا واسلموا المدينة فدخلها حسان فحرق وخرب وبنى فيها مسجدا وخلف فيها طائفة من المومنين قال واغارت الروم من البحر على من بقي فيها من المسلمين فقتلوا وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ووصل الخبر الى حسان فرحل الى

تونس وارسل اربعين رجلا من اشراف العرب الى عبد الملك بن مروان وكتب اليه بما نال المسلمون من البلاء فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه الامر وكان اذ ذاك التابعون متوافرين وفيهم اثنان من الصحابة انس بن مالك وزيد ابن ثابت فقالا للمسلمين من رابط يوما برادس فله الجنة وقالا لعبد الملك ادرك هذه البلاد وانصر اهلها ليكون لك ثوابها فانها من البلاد المقدسة فكتب عبد الملك الى اخيه عبد العزيز وهو وال على مصر ان يوجه لتونس الف قبطي باهله وولده وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس وكتب الى حسان بن النعمان يامره ان يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يصنع بها المراكب ويغير منها على سواحل الروم . فوصل القبط الى حسان وهو مقيم بتونس فجرى البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجعل فيها المراكب الكثيرة وامر القبط بعمارتها * قال ابن الشباط وقد تقدم ان عبيد الله بن الحبحاب هو الذي بنى دار الصناعة فلعل سنن روى ذلك يريد ان عبيد الله جددها وزادها تحصينا فلم تزل تونس معمورة من يومئذ يغزو منها المسلمون بلاد الروم ويكثرون فيهم النكاية والاذاية * وذكر البكري ان حسان هو الذي خرق البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة * وقال غيره ان الوليد ابن عبد الملك بن مروان لما علم ان الروم اغاروا على تونس وبلغ ذلك من المسلمين كل مبلغ وان علماء المشرق كتبوا الى اهل افريقية سنن رابط عنا يوما برادس جعلنا عنه جنة وعظم قدر رادس عند العلماء وزاد فضلها وان حسان بعث الى الوليد يعلمه باذاية الروم كتب الوليد الى عمه عبد العزيز بن مروان وهو وال على مصر وافريقية ان يوجه الف قبطي والف قبطية ويحملهم الى بلاد افريقية وامره ان يخرق البحر الى تونس * وذكر غيرهما أن الذي خرق البحر الى تونس هو موسى بن نصير وجعل دار الصناعة بتونس وجر البحر اثني عشر ميلا حتى اقحمه دار الصناعة فصارت مينا المراكب وامر بصناعة مائة مركب وغزا بها بلاد الروم وعقد لولده عبد الله

عليها وامره بالانصراف الى صقلية وكانت اول غزوة غزيت في بحر افريقية فسار عبد الله الى صقلية فافتتح فيها واصاب ما لا تدرى قيمته ثم انصرف قافلا سالما وكانت تسمى غزوة الاشراف وعقد بعد ولده لبعض اصحابه على مراكب اخر فوصل سرقوسة وملكها والله اعلم بحقيقة ذلك * وحاصل الامر ان تونس ليست محتاجة الى تعريف وذكرها طبق الوجود فهي كما قيل في المثل طابق الاسم المسمى لانها تونس الغريب وقلما يوجد غريب دخلها إلّا وحصلت له بها علاقة ولا يفارقها إلّا وهو متحسر عليها وسن قطن بها حنت عليه وحن لها ان فارقها وعزت عليه * وذكرها غير واحد من العلماء واثنى عليها بمحاسن كثيرة لا تعد ولا تحصى * وزمزم الحداة بذكرها في المسجد الحرام والمسجد الاقصى — وكيف يصح في الاذهان شيء : اذا احتاج النهار الى دليل — وهي حرسها الله واسطة البلاد الافريقية كما ان افريقية واسطة البلاد الغربية فهي بمنزلة الراس من الجسد بل بمنزلة العين من الراس واذا ثبت ما قلته وتقرر ما نقلته فالذي صح عندي انها قديمة من بناء الاوائل والذي ذكر فتحها هو اقرب من غيره وان حسان هو الذي فتحها وبنى بها مسجدا وعبيد الله بن الحبحاب زاد في ضخامته كما ان زيادة الله بن الاغلب زاد فيه وضخمه وكملت ضخامته في ايام بني حفص كما سياتي بعد ان شاء الله تعالى * وحسان بن النعمان هو الذي فتح قرطاجنة وقطع عنهم القناة المجلوب عليها الماء وفتح تونس واتخذ بها مسجدا وهو الجامع الاعظم وسمي بجامع الزيتونة كما مر في اول الكتاب * وتونس لا شك انها قديمة البناء وكانت معاصرة لقرطاجنة * واسمها ترشيش وقيل هذا الاسم علم لها من قديم الزمان الذي هو تونس * وسالت بعض النصارى ممن لهم علم بالتاريخ فقال اسمها تنس في كتبنا وهذا الاسم باللسان الاعزيقي معناه تقدم واوقفني على كتاب عنده في التواريخ وكلتا المدينتين فيه مصورتان تونس وقرطاجنة والحنايا ووادي بجردة وتونس اصغر حجما من قرطاجنة وسالته عن تاريخهما فقال ازيد من الفي عام * والنصارى

لهم اهتمام بهذا العلم والبلاد كانت لهم وصاحب الدار ادرى بالذي فيها ولا يعلم الغيب إلّا الله تعالى * واما سن قال بناها بنو امية في حدود الثمانين والذي بنى الجامع ودار الصناعة عبيد الله بن الحبحاب سنة اربع عشرة ومائة فبعيد اذ كيف يمكن ان يقال مكثوا نيف وثلاثين سنة بغير مسجد وهولاء القوم كانوا في صدر الاسلام إلّا ان يكون تاسيس المسجد في الاول والبناء الضخم في الاخر وبهذا يرتفع الاشكال بحول الله * واما السور فمن بناء بني الاغلب والقصبة ايضا وكانت عمال افريقية سكناهم القيروان واول من سكن تونس من العمال الاغالبة * قال ابن ناجي رحمه الله واتخذ بنو الاغلب تونس لمتنزهاتهم وبنوا الجامع الاعظم * قلت ومات بتونس عبد الله بن احمد بن ابراهيم بن الاغلب سنة ست بعد التسعين والمائتين مقتولا قتله بعض خدمته باتفاق من ابنه زيادة الله واستقل بالملك بعده * وبالجملة فان مدينة تونس لها حظ وافر * وحسن باهر * حازت قصبات السبق في البلاد الغربية * وعظم شانها بين جيرانها وحبائبها الافريقية * ولا سيما في هذه الدولة التركية * والسلطنة الخاقانية * خلد الله ايامها * وسير بالعدل احكامها * تميزت بجمع المحاسن * وصفا منها كدء اسن * واتسعت عماراتها * وكثرت خيراتها * وعمرت فيها الاسواق والدور * وبنيت فيها المنازه والقصور * وظهر فيها كل حسن غريب * وهاجر اليها البعيد والقريب * وطابق الاسم المسمى كما يقال تونس الغريب * إلّا انها في هذا الزمان اصيبت بالمحن * وقام بها سوق الخوف من بعد الامن من شدة الفتن * عسى الله ان يجعل بعد عسر يسرا * واهلها ولله الحمد لهم اخلاق رضية ونفوس ابية * وعقل ثاقب * وراي صايب * وعلو شان * وحدة اذهان * وعلماوها مميزون عن سن سواهم بالذكاء والنباهة حتى ان الواحد منهم اذا لازم الاشتغال يحصل له في سنة ما لا يحصل لغيره في عدة سنين * ورزقها الله تعالى سرا تميزت به بين البلدان * واعظم سرها جامعها الاعظم كانه بين المساجد مسجد سليمان * وذكرها العبدلي في رحلته واثنى على اهلها خيرا * وذكر

علمآءها بما هم اهله ولما ذكر مصر قال سماعك بالمعيدي وسن كابر في النقل فلينظر الاصل * وكان العلامة الشيخ ابو عبدالله محمد بن مصطفى الازهري نزيل تونس رحمه الله لما استوطن هذه الديار التونسية وتانس بها وحضر عند اهلها وامرائها يقول لو سئلت عن ثلاث لاجبت بلا ولو قطع راسي لو قيل لي هل رايت اعلم من الشيخ ابراهيم اللقاني لقلت لا . ولو قيل لي هل رايت اسر من جامع الزيتونة لقلت لا . والسوال الثالث ياتي في محله ان شاء الله تعالى * ولقد غالى بعض العلماء في مدح تونس وحريمها حتى قال سن لم يتزوج بتونسية ليس بمحصن وفي هذا القدر كفاية * لمن له خبرة ودراية * ولو تتبعنا محاسنها لطال بنا الكلام وخرجنا عن الشرط * ولما مد القلم لسانه في هذا المحل حكينا عليه بالقط * وعسى ان نصل الى ما هو اهم * وننتقل من الخصوصية الى ما هو اهم * وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *

الباب الثاني

في التعريف بافريقية

افريقية من بلاد المغرب وعند اهل العلم ان اطلق اسم افريقية فانما يعنون به بلد القيروان واما اهل السير فيجعلونه اقليما مستقلا وله حدود ولهم اختلاف فيه وافريقية اوسط بلاد المغرب وخير الامور اوسطها * وقيل انما سميت بافريقية لانها فرقت بين المشرق والمغرب ولا يفرق بين الاثنين إلّا احسنهما * وقيل سميت افريقية باسم اهلها وهم الافارقة والافارقة من ولد فاروق بن مصرايم وقال ءاخرون الافارقة من ذرية قوط بن حام بن نوح عليه السلام سموا باسم البلاد * وقيل ان افريقش بن ابرهة بن ذي القرنين لما غزا بلاد المغرب ودوخ البلاد بنى مدينة سميت باسمه فقالوا افريقية وسموا اهلها الافارقة ذكره المقريزي * وقيل اسمه افريقين بن قيس بن صفي

الحميري افتتحها وقتل ملكها واسمه جرجير فسميت به ويومئذ قال لاهلها ما اكثر بربرتكم فسموا بربر قاله ابن خلكان * وقيل كان اسمه افريقس بالسين المهملة فعربتها العرب بالشين المعجمة * ونقل ابن الشباط عن بعضهم انه كان يقول اسمها ابريقية من البريق لان سماءها خال من السحب قلت وهذا القول بعيد لان افريقية كثيرة السحب حتى قال بعضهم ان القيروان لا تخلو من السحب في غالب السنة ويعبر عن فحص القيروان بمزاق لان السحب تتمزق منه حتى قال بعضهم تنشا السحابة بالقيروان وتمطر بصقلية وغالب بلاد افريقية كثيرة البرد والامطار وغالب الاوقات لا تخلو من السحب * وسمعت بعض الفقهاء يقول معنى قوله تعالى ـ اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز ـ يعني الارض المخرشفة على احد التآويل ولا يوجد في غالب العمور اكثر خرشفا من افريقية والله علم * وافريقية اقليم عظيم جمع المحاسن الجميلة * والفوائد الجليلة * والمدن العظيمة * والمزارع الكريمة * والمياه العذبة * والفواكه اليابسة والرطبة * والمباني المنيفة * والمعادن الشريفة * والمسارح المعدة للضرع * والاثار البديعة للزرع * وجميع ما يحتاج اليه * وتقبل النفوس عليه * وجعلوا حدود المغرب من سيب بحر النيل بالمشرق الى ساحل البحر المحيط من ناحية المغرب * وحد افريقية بالطول من برقة الى طنجة وعرضها من البحر الشامي الى الرمال التي اول بلاد السودان قاله غير واحد * قلت في زماننا هذا لا يعبر بافريقية إلّا من واد الطين الى بلد باجة * وقال ابن الشباط واوصاف افريقية اشهر من ان تذكر * او يخاف عليها من ان تجحد وتنكر * ولم يزل بها على مر الزمان من العلماء والكتاب * وذوي البراعة في المعارف والاداب * من تزدان باوصافه الاقطار * وتشرق بانوار كلامه الاسطار * وذكر احاديث شريفة في فضل المغرب وفضل افريقية * وتقدمه ابن الدباغ في ذلك واورد احاديث وردت في فضل المنستير ورادس * وقال ابن ناجي لا شك ان الاحاديث التي في المنستير ورادس موضوعة * وها انا

اورد من تلك الاحاديث ما ثبتت صحته على وجه التبرك * ذكر ابن الشباط قال في كتاب مسلم حدثنا يحيى بن يحيى قال حدثنا هشام عن داوود ابن ابي هند عن ابي عثمان عن سعد بن ابي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة * وفي كتاب الطبقات في علماء افريقية حدثني فرات بن محمد قال حدثنا عبد الله بن ابي حسان البحصبي عن عبد الرحمن بن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - ليأتين اناس من امتي من افريقية يوم القيامة وجوههم افضل نورا من نور القمر ليلة البدر * وذكروا عدة احاديث وردت في افريقية وان المنستير باب من ابواب الجنة * ولا شك ان لها فضلا وشانا والله اعلم * وحكى بعض المورخين عن عبد الرحمن بن زياد بن انعم انه قال كانت افريقية من طنجة الى طرابلس ظلا واحدا وقرى متصلة عامرة فاخربت جميع ذلك الكاهنة وذلك لما هزمت حسان بن النعمان الغساني بعد ما فتح قرطاجنة وتونس وهزم البربر هزيمة شنيعة وفروا امامه الى برقة ورجع الى القيروان فسال هل بقي احد ممن له شوكة قوية من البربر فقيل له امراة ساحرة يقال لها الكاهنة وهي بجبل اوراس في عدد عظيم * فسار اليها والتقى معها فاقتتلوا اشد قتال فقتل من العرب خلق كثير وانهزم حسان واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس واسرت من اصحابه ثمانين رجلا وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان * وكتب حسان الى عبد الملك يخبره بما لقي المسلمون فوافاه الجواب يامره بالمقام حيث ادركه كتاب امير المومنين فادركه وهو في عمل برقة فاقام هنالك خمسة اعوام بموضع يقال له قصور حسان وبه سمي الى الان * وملكت الكاهنة افريقية خمس سنين منذ انصرف حسان عنها وقالت للبربر ان العرب يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع ولا نرى لكم الا خراب افريقية حتى ييأسوا منها وارسلت قومها الى كل ناحية لقطع الشجر والزيتون

فخربت البلاد باسرها وهدمت الحصون وكانت كلها قرى متصلة * وفي تواريخ النصارى انه كان لملك افريقية وهو صاحب قرطاجنة مائة الف جفن بين حصن ومدينة يحكم عليها وانه لما غزا الى رومة المدائن اخذ من كل بلدة رجلا ودينارا وسار اليها على ناحية المغرب على بحر الزقاق من ناحية الاندلسية وافرنجة واناخ على رومة وحاصرها حصارا شديدا وبعث صاحب رومة عسكره في البحر الى قرطاجنة واناخ عليها ووقع القتال بينهم على وادي مجردة وكان بينهم قتال شديد وكان الخيالة من اهل قرطاجنة ثمانين الفا غير الرجالة فعند ذلك رحل صاحب قرطاجنة عن رومة ورجع الى بلاده ومن ذلك الوقت بقيت الافارقة في الاندلسية وملكوها مئين من السنين والله اعلم * وقال الملشوني لم يدخل افريقية نبي قط واول سن دخلها بالايمان حواري عيسى عليه السلام * قلت الحواري الذي دخلها اسمه متى العشار وقتل بقرطاجنة وهو اول سن كتب الانجيل بلسان العبراني بعد رفع المسيح بتسع سنين * وقال غيره بل دخلها نبي الله خالد بن سنان العبسي وكان في زمن الفترة ولكن لم يدخلها بدعوة وهو مدفون في المغرب في بلد بسكرة وانكر بعض الفقهاء ذلك وصححه اخرون والشيخ التواتي ممن اثبته انه هو * ورايت بخط والدي رحمة الله عليه قال حضرت الشيخ المذكور وهو متوجه لزيارة نبي الله خالد بن سنان العبسي وله كتاب صنفه الشيخ وثبت عنده صحته وهو في تلك البلاد يسمونه خالد النبي ويزورونه ويتبركون بمقامه صلى الله عليه وسلم * ومن مدن افريقية - برقة - وطرابلس - وغدامس - وفزان - واوجلة - وودان - وكوار - وقفصة - وقسطيلية - وقابس - وجربة - وتيهرت - وباجة - والاربس - وشقبنارية - وصبرة - وسبيطلة - وباغاية - وليس - واذنة - ودرعة - وجانة - وسوسة - وبنزرت - وزغوان - وجلولا - وقرطاجنة - وتونس - وكل هذه وقع عليها الفتح * وانما كانت دار الملك اولا في قديم الزمان بقرطاجنة لما كانت بيد الافارقة الاغريقيين الى ان

خلت عليهم البربر من بلاد المشرق بعد ما قتل ملكهم جالوت وتفرقوا في
البلاد فانحاز اكثرهم الى افريقية والمغرب واستوطنوا البلاد سهلها ووعرها الى
ن ظهر فيهم دين النصرانية فتغلبت الروم على سواحل البلاد وصارت الى
ن لهم ذمة * وكانت قرطاجنة اعظم مدن المغرب وهي قديمة البناء قال
بعضهم انها بنيت في زمن داوود عليه السلام وان بين بنائها وبناء رومة
اثنتين وسبعين سنة ولم يذكر ما السابق منهما * قلت هذا بعيد
جدا الا ان يكون بناءها الثاني او الثالث لقول احد المفسرين ان الذي
كان ياخذ كل سفينة غصبا هو صاحب قرطاجنة * وموسى كان قبل داوود
عليهما السلام بزمان طويل * وذكر ان مجمع البحرين برادس والجدار
بالمحمدية وهي طنبذة واهل تلمسان ايضا يسمون بلدهم بالجدار الى الان
والله اعلم * ويشهد لقدمها ما روته الثقاة عن عبد الرحمن بن زياد بن
انعم قال كنت وانا غلام مع عمي بقرطاجنة نتمشى في اثارها ونعتبر بعجائبها
فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية ـ انا عبد الله بن لاواسي رسول رسول الله
صالح * وفي رواية بعضهم ـ شعيب بعثني الى اهل هذه القرية ادعوهم الى
الله تعالى انيتهم ضحى فقتلوني ظلما حسيبهم الله * وذكر بعض المورخين
ان موسى بن نصير لما فتح الاندلسية ذكر له بها شيخ كبير فدعا به
فاذا الشيخ وقعت حاجباه على عينيه فقال له اخبرني كم اتى عليك من
السنين قال خمسمائة عام فساله عن اشياء فاجابه الى ان قال له اين
بلدك قال قرطاجنة قال له كم عمرت بها قال ثلثمائة عام وبهذه البلاد
مائتي عام فساله عن خبر بناء قرطاجنة فقال بقية من قوم عاد الذين
اهلكهم الله بالريح العقيم فعمروها ما شاء الله ثم خربت وبقيت الف سنة
خرابا حتى اتى النمرود بن لاوذ بن النمرود الجبار فبناها على البناء الاول
ثم احتاج الى الماء العذب فبعث الى ابيه وكان ابوه بالشام والعراق وعمه
على السند والهند فارسل اليه ابوه المهندسين والفعلة فهندسوا له الماء حتى
اوصلوه الى المدينة ومكثوا يرتادون الماء اربعين سنة * ولما حفروا

اساسه وجدوا حجرا مكتوبا عليه بالخط الاول سبب خراب هذه المدينة اذا ظهر فيها الملح فبينما نحن ذات يوم عند غدير بدار الصناعة بقرطاجنة اذ نحن بالملح منعقد على الحجر فعند ذلك رحلت الى هنا وسن كان على مثل راي في ذلك . وساله عن عمر الملك فقال عمر سبعمائة عام والله اعلم * وهذه الحنايه من اعجوبة الدنيا واذا افتخر المصريون بالاهرام تفتخر اهل افريقية بهذه الحنايه على مصر لان اصل الماء منبعث من عين جنقار واليوم اسمها الحميدية وهي وراء زغوان بمسافة بعيدة وجلبوا ماء زغوان معها وكلما وجدوا في طريقهم ماءً جلبوه من اليمين والشمال عدة فراسخ وكانت من اولها الى اخرها محفوفة بالبساتين والامياه جارية بينها * وفي تواريخ النصارى ان طول مسافة الحنايه من منبعها الى المدينة ستون ميلا على الاستقامة وبتعريجها وعطفاتها ثلثمائة ميل ونيف وثلثون ميلا وانها كملت في ثلثمائة سنة واربع سنين * قلت لا يستغرب طول هذه المدة لان هذا البناء من اغرب الابنية واذا كان طولها ثلثمائة ميل ونيف وثلثين ميلا فلا يبعد ان يكون البناءُ في كل سنة ميلا مع هذا الاتقان الذي بها وطول اعمار القوم وسن شاهدها حكم بعقله بصحة ذلك * وعند النصارى كان بقرطاجنة ثلثة اسوار دائرة بها والبحر يضرب في سورها وهي من اعجب بلاد الله وكان تكسيرها اربعة عشر الف ذراع وهي من اعظم بلاد افريقية * وقال البكري لو دخلها الداخل ايام عمره لراى كل يوم اعجوبة وبها قصر يعرف بالمعلقة مفرط في العلو فيه طبقات كثيرة مطل على البحر * قلت لم يبق مما ذكر إلّا هذا الاسم وبقيت خرائب بها يسمونها المعلقة الى الان * قال وبها قصر يسمى الطياطر فيه دار الملعب وقصر يقال له ترمس فيه سواري من رخام مفرطة في الطول يتربع على راس السارية عشرة رجال وبينهم سفرة وسبعة مواجيل تعرف بمواجيل الشياطين فيها ماءٌ لا يدرى من اين دخلها * قلت المواجيل موجودة ليومنا هذا * قال وداخل المدينة مينا تدخلها السفن بشرعها وهي اليوم